4. العمارة الحمادية:

بعد أن كلف بنو حماد من طرف بني عمومتهم الزيريين بإدارة شؤون المغرب الأوسط حصلوا على الإذن منهم بتأسيس عاصمتهم على بعد 40كلم من مسيلة في جبال المعاضيد بالحضنة، وكنت كلتا الدولتين تحت الراية الفاطمية قبل أن يعلنان عن تمردهما عنها وخروجهما عن طاعتها، فقام الفاطميون بإرسال قبائل بني هلال لتأديبهم وخلف هذا الهجوم خرابا كبيرا أتى على الكثير من المنشآت المعمارية.

أظهرت الحفريات التي قام بها كل من بول بلانشي والجنرال بايلي وقولفان والحفريات التي أجريت في السبعينات من القرن الماضي آثار منشآت عديدة منها قصور والمسجد الجامع للمدينة وعلى وجه الخصوص مئذنته المشهورة ومسجد آخر صغير.

*** المسجد الجامع لقلعة بني حماد:**

يعد المسجد الجامع بقلعة بني حماد أهم المساجد الحمادية وأولها بالمغرب الأوسط قاطبة منذ تأسيس عاصمة الحماديين الأولى كما يعد أهم مرفق بها ومركزها الرئيسي، ويقع هذا الجامع قرب قصر البحر،

الصورة رقم 01: منظر عام للمسجد الجامع بالقلعة

يشغل المسجد مساحة شكل مخططها مستطيل بمساحة (53.20x63.20)م^2، يحيط به جدار سمكه 1.5م محصن من الخارج بدعائم مستطيلة طولها 1.80م وعرضها 1.30م، أما بيت الصلاة فهي ذات تخطيط مستطيل الشكل بمساحة (34.20x53.20)م^2 تضم 08 بلاطة موازية لجدار القبلة يحددها ومكونة من 13 أسكوبا عموديا على جدار القبلة، ويقع المحراب في منتصف جدار القبلة على نفس المحور مع مدخل بيت الصلاة والمئذنة، وبداخل بيت الصلاة يوجد شكل مخطط بناء صغير لمصلى استحدث بعد خراب القلعة على يد الموحدين سنة 547هـ/1152م حيث هجرها السكان إلى بجاية فقل عدد السكان بها، وهذا عكس ما ذهب إليه خطأ كل من سلادين ودي بيلي وجورج مارسيه في أنه مقصورة، وبيت الصلاة هذا مؤلف من 04 بلاطات موازية لجدار القبلة و05 أساكيب.

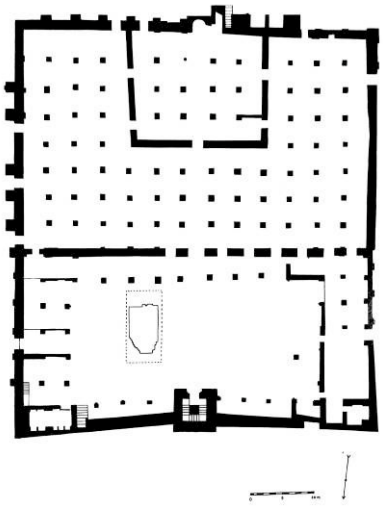

المخطط رقم 01: مخطط المسجد الجامع بقلعة بني حماد

يشغل الصحن مساحة شكل مخططها مستطيل ومساحته (26.90x53.20)م^2، يفصله عن بيت الصلاة جدار به أبواب، وزود الصحن بـ 03 أبواب في جدرانه الثلاثة، حيث واحد منها بالجدار الشرقي وآخر بالجدار الغربي والثالث بالجدار الشمالي، هذا الأخير –الشمالي-يؤدي إلى درج مؤلف من 09 درجات، وكان الصحن مفروشا بالبلاط الأبيض وتحيط به أروقة، كما أن في وسطه صهريج طوله 11.15م وعرضه 5.40م وارتفاعه الداخلي 2.80م مغطى بقبو على شكل عقد منكسر انهار منه جزء كبير، كما توجد بالصحن آثار قاعة ذات مخطط مستطيل بمساحة (3.40x6.40)م^2 مفرشة بالحجر ويقسمها قوس نصف دائرية إلى نصفين، ربما كانت تستعمل كمكتبة.

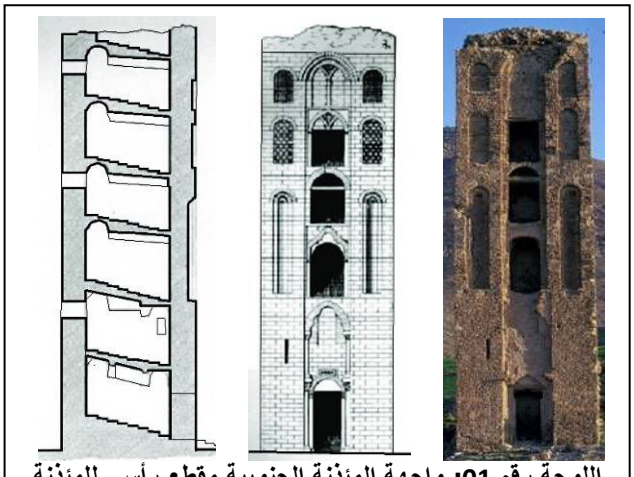

اللوحة رقم 01: واجهة المئذنة الجنوبية مقطع رأسي للمئذنة

تعد المئذنة فريدة في طرازها المعماري بالنسبة لمآذن المغرب الإسلامي، ووجهتها الجنوبية التي تعد علامة في زخارفها ببلاد المغرب الإسلامي منذ تأسيس أول مئذنة بالقيروان وعرفت فيما بعد باسم مئذنة قلعة بني حماد وأصبحت تدل على عمارتها وبقايا آثارها التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

تقوم المئذنة وسط الجدار الشمالي للمسجد وبموقعها على نفس المحور مع محراب المسجد فهي لم تخرج عن تقاليد القيروان وجامع صفاقس، وتتألف من برج مخطط قاعدته مربع الشكل فقد قمته وبارتفاع قدره 24.70م وطول أضلاعه 6.50م بنيت بالحجارة، ندخل إليها من خلال باب عرضه 2.40م يؤدي إلى سلم يلتف حول نواة مركزية مربع المقطع طول ضلعها 1.50م، وعدد درجها 127 درجة بعرض 1.10م مسقوفة بأقبية نص دائرية، وفي نهايتها أقبية متقاطعة وهذا حتى مستوى النافذة المفتوحة بالواجهة الجنوبية.

الصورة رقم 02: الزخارف النباتية والهندسية بواجهة المئذنة الجنوبية

نجد أسلوب زخارف هذه المئذنة عبارة عن حنيات اقتصرت على الواجهة الجنوبية فقط، وهي مؤلفة من 03 ألواح قائمة، في اللوحة الوسطى نلاحظ من أسفل المئذنة إلى أعلاها بابا مستطيلا ارتفاعه 2.70م فوقه خشبة من العرعار، تكون ساكفا وعقد نصف دائري من الآجر كان موضوعا على عمودين على يمين ويسار الباب، يعلوها لوحة من الحجر مقاساتها 0.94م طولا و0.40م عرضا، مزينة بزخارف نباتية وهندسية.

الصورة رقم 03: إعادة تصور للمسجد

يعلو هذه اللوحة عقد نصف دائري ويعلوه هو الآخر عقد مستقيم مائل ونافذة يبلغ ارتفاعها 3.10م وعرضها 1.55م جزؤها العلوي على شكل نصف دائرة، ثم نافذة أخرى تماثلها في الشكل والعرض ويبلغ ارتفاعها 2.27م ثم 03 أقواس نصف دائرية متحدة في المركز ومدرجة.

أما فيما يخص اللوحتان الجانبيتان فكل واحدة منهما مزينة بمشكاة نصف دائرية القعر مكللة بقبة نصفية من الجص على شكل صدفة مثل المشكوات التي تزين برج المنار، تعلوها مشكاتان مسطحتا القعر موضوعتان الواحدة فوق الأخرى كان جزؤهما العلوي مزين بالآجر والخزف، وكل هذا بالواجهة الجنوبية أما باقي الواجهات خالية من الزخارف باستثناء تلك الفتحات المخصصة للتهوية والإضاءة.

*** مسجد قصر المنار بقلعة بني حماد:**

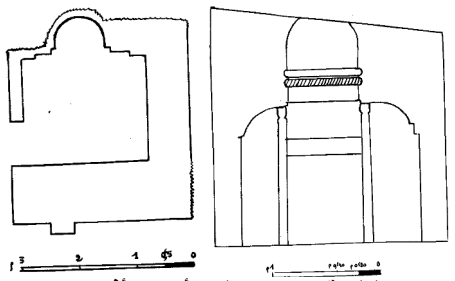
المخطط رقم 02: مقطع رأسي وأفقي لمسجد قصر المنار

اكتشف خلال حفريات 1968م يبلغ طول هذا المسجد المصلى 1.80م وعرضه 1.70م مزود بمدخل عرضه 0.74م وارتفاع جداره الشمالي 0.76م ويبلغ عرضه 1.02م يفصل المسجد عن صحن القصر، وهو حاليا خالي من أي زخارف ويبلغ ارتفاع الجدار الغربي 1.03م وعرضه 1.80م وسمكه 0.76م، وهذا الأخير مزين بزخارف عبارة عن كتابة منفذة على الجص فقد جزء من بدايتها وبقي جزء من الآية 36 من سورة النور "...**اسمه يسبح له فيها بالغدو..**".

الصورة رقم 04: بيت صلاة المسجد

يقع المحراب بالجدار الجنوبي الذي يبلغ ارتفاعه 2.20م، المحراب له مشكاة نصف دائرية يبلغ عرضها 0.86م وعمقها 0.53م، وقد كانت هذه المشكاة متوجة بقبة نصف دائرية تهدم جزءها العلوي في حين قاعدتها مزينة بأخدود نصف دائري عرضه 0.06م وضفيرة تساوي الأخدود في العرض، وفي وسط مشكاة المحراب هناك كتابتين لآيات من القرآن الكريم، الكتابة الأولى أفقية نصها سورة الإخلاص: **"قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد"**، أما الكتابة الثانية نصها الآية 18 من سورة آل عمران مرتبة في 04 أشرطة:

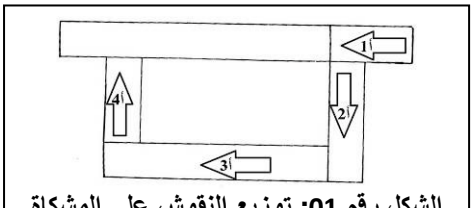

الشكل رقم 01: توزيع النقوش على المشكاة

أ1: **شـ**(هد الـ)**له**
أ2: **أنه لا إله إلا هو وا**
أ3: **لملائكة وأولو** (العلم) **قائما بالقسط لا إله إلا هو**
أ4: **العزيز الحكيم**

وزخارف المحراب هذه مرتبة في اتجاهات مختلفة، وإلى جانب زخارف المحراب هناك زخارف أخرى تزين جدار المحراب توجد على يمين ويسار المشكاة، وهي عبارة عن زخارف كتابية متشابكة مع زخارف نباتية، بحيث على يمين المحراب نجد ما تبقى من الآية 36 من سورة النور التي كانت تزين الجدار الغربي للمسجد، وهي موزعة على 06 أشرطة موزعة وموجهة بطرق مختلفة على النحو التالي:

ب2: والأ
ب3: صل رجال
ب4: لا
ب5: تلهيهم تجا
ب6: رة ولا بيع عن ذكر
ب7: الله

وبالشريط (ج) يوجد زخرفة كتابية نصها بداية الآية 255 من سورة البقرة أما في الشريط (د) يوجد زخرفة كتابية نصها **العز لله** .

أما على يسار المحراب موزعة كما في الشكل رقم 3 كما يلي:

هـ1: الحمد لله رب
هـ2: العالمين
هـ3: ما بقي منها إلا كلمة الله موجهة إلى أسفل

أما الزخرفة "و" مؤلفة من شريطين: **و1** وَ **و2** نصها بداية الآية 59 من سورة الأنعام موزعة كما يلي:

و1: وعنده مفاتيح الغيب
و2: الغيب

أما الزخرفة "ز" هي الأخرى مؤلفة من شطرين ز1 وَ ز2 تشتمل على الآية 180 من سورة الصافات موزعة كما يلي:

ز1: سبحان
ز2: ربك رب العزة عما....
ك: الملك لله واحد. العز

يوجد بالزخرفة "ل" موضوع زخرفة كتابية نصها بداية الآية 62 من سورة الأنفال مرتبة على النحو التالي:

ل1: وإن يريـ
ل2: دوا

أما باقي الزخارف النباتية فهي غصن وأوراق بسيطة ومزدوجة وزهيرات ذات ثلاثة فصوص يحيط بها صف من اللآلئ

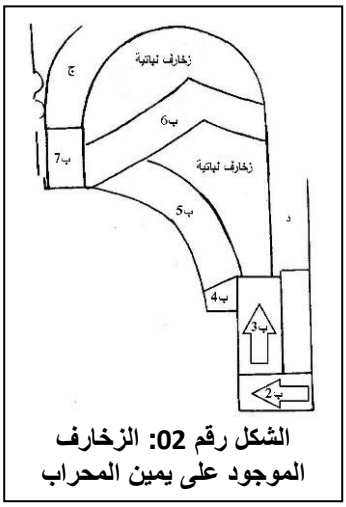

الشكل رقم 02: الزخارف الموجود على يمين المحراب

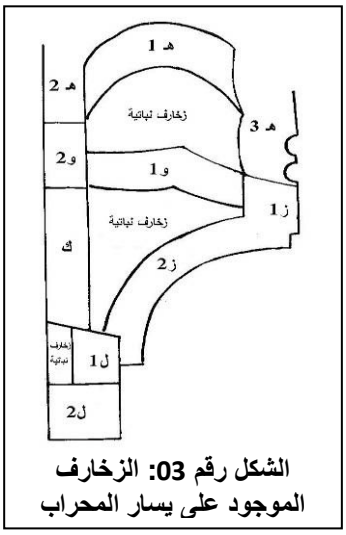

الشكل رقم 03: الزخارف الموجود على يسار المحراب

الشكل رقم 04: الزخارف النباتية بمسجد قصر المنار

يبلغ عرض الجدار الشرقي 1.08م ويساوي ارتفاعه ارتفاع جدار المحراب، وتزينه بقية الآية 62 من سورة الأنفال: **أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره**

نستنتج مما سبق أن لهذا المسجد أهمية بالغة وهذا بالنظر لعد من الأسباب نذكر منها:

* أصغر مسجد في العالم الإسلامي كله
* المسجد الجزائري الوحيد الذي يتبع القصر ويعود للقرون الوسطى
* زخارفه فريدة من نوعها مقارنة بالزخارف العالم الإسلامي (عقد المحراب النصف الدائري وأخدود المشكاة وضفيرتها لا يوجد لهما مثيل في أي مسجد بالعالم الإسلامي والمحراب الوحيد الذي يشبهه ذاك الموجود في قبة الصخرة والعائد إلى عبد الملك بن مروان)
* لا يوجد كتابات متشابكة إلى هذا الحد إلا في جامع قسنطينة والذي هو الآخر حمادي.

*** الجامع الكبير بقسنطينة:**

الصورة رقم 05: واجهة الجامع الكبير بقسنطينة

عثر على كتابة منقوشة فوق ضريح اكتشفت بالجامع تحمل تاريخ 618هـ/1221م وبناءا على هذا الاكتشاف يرجح المؤرخ شاربونو أن تاريخ تأسيس هذه الجامع تم مع نهاية القرن 13م على أقل تقدير، إلا أنها وللأسف هذا الجزء من الجامع به هذا الضريح قد هدم من قبل سلطات الاحتلال وحلت محله عمارات سكنية حسب ميرسي، فيما يذكر الأستاذ رشيد بورويبة 03 كتابات لم تنشر من قبل إحداها موجودة بحنية المحراب نفذت بالخط الكوفي نصها: **"بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما هذا عمل محمد بن بو علي الثعالبي سنة ثلاثين وخمسمئة"**.

نقشت الكتابتان الأخريان على صفيحتين من الجص إحداهما تعلو الأخرى، فيما السفلى منهما بالخط الكوفي وتحمل تاريخ 455هـ/1063م، فيما العلوية بالخط اللين وبها تاريخ مؤلف من 04 أرقام، يحمل أنها 1080هـ/1669م أو 1180هـ/1766م أو 1280هـ/1853م، وكل ما يهمنا الكتابة الموجودة داخل المحراب والتي يمكن الاعتماد عليها في تحديد تاريخ المسجد كونها الأقدم.

يرى رشيد بورويبة أن جدار القبلة -الجدار الجنوبي- أصلي لأن به المحراب الحامل لتاريخ 530هـ/1136م، كما يرى أن الجدار الشمالي هو الآخر يعود لنفس الفترة لأن به أبواب زخرفت بنفس الزخرفة التي تزين الجدار الشرقي، ويرجع تاريخها إلى سنة 455هـ/1063م، على أن الجدار الشرقي ليس من العهد الحمادي ذلك أن المسجد تهدم من ناحيته أسكوب واحد على الأقل، ويلاحظ اليوم وجود 03 أساكيب على الجانب الغربي للمحراب وأسكوبان بالجانب الشرقي، فيما يجهل تماما الحقبة التي يعود إليها الجدار الغربي.

عرف بيت الصلاة تحويرات وتعديلات كثيرة لدرجة يصعب معها معرفة تخطيطه الأصلي.

*** تخطيط الجامع:**

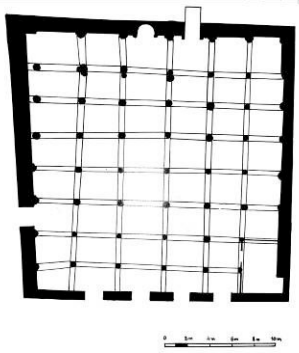
المخطط رقم 03: الجامع الكبير بقسنطينة

يميل شكل بيت صلاة جامع قسنطينة إلى الشكل المنحرف المستطيل، ويبلغ طوله في الداخل 24م وعرضه 22.1م أي أنه يكاد يكون مربع، وتضم بيت الصلاة 06 أساكيب عمودية على جدار القبلة و 08 بلاطات موازية لجدار القبلة، كما يوجد جدار فاصل بين بيت الصلاة والصحن كما هو الحال في مسجد قلعة بني حماد وجامع سيدي مروان بعنابة، وفتحت بهذا الجدار 04 أبواب عرضها 1.60م.

الصورة رقم 06: بيت صلاة الجامع الكبير بقسنطينة

بالنسبة للسواري نلاحظ التنوع الكبير من حيث الشكل والزخرفة، فهناك ما هو أسطواني ومدورة ومخروطية، ومنها ما هي ملساء أو مزينة بأخاديد، يتراوح قطرها بين 0.30 و0.60م كما أن سواري المحراب وحدها التي تعود للفترة الإسلامية، كما نلاحظ غياب قاعدة ترتكز عليها وهناك 06 منها مجمعة مثى مثنى، والتاجان اللذان يرتكز عليهما عقد المحراب لهما دوائر جانبية تشبه تلك التي عثر عليها جورج مارسي بباب قلعة بني حماد.

الصورة رقم 07: محراب الجامع

تحمل السواري أنواع كثيرة من العقود منها القوس نصف دائرية والقوس المكسورة المتجاوزة والقوس الإيرانية.

بني المحراب كما هو الحال في المساجد التي سبقته على شكل قوس معلاة، ويكتنفه من الجانبين ساريتان يعلوهما تاجان بارتفاع كلي 1.84م وقطرها 0.15م.

زينت مشكاة محراب الجامع بكتابة بالخط الكوفي، ويعلو المحراب قبة نصفية مزينة بأخاديد تنطلق وسط قاعدتها وهي تشبه نظيرتها جامع الخصاكي بمتحف بغداد كما ذهب كريزويل إلى أنه منقول عن ذاك الذي بناه المنصور في بغداد عام 766م، أما الزخارف التي تزين القبة النصفية عبارة عن قوس إهليليجية الشكل، وسعف النخيل ودائرة مرسوم في داخلها نجمة سداسية الأطراف، وقفل لولبي، ونوط بيضاوي الشكل.

الصورة رقم 08: مئذنة الجامع

أما بالنسبة لإطار المحراب فنلاحظ على قوس الانفتاح قد جاء على شكل قوس مكسورة ذات فصوص غير متساوية ومتراكبة على بعضها ومتشابكة وبحسب الأستاذ بورويبة ربما هي المرة الأولى التي يصنع فيها مثل هذا القوس.

تقع الحنية بين قوس الانفتاح والقوس المكسورة متحدة معها في المركز وعرضها 0.13م مزخرفة بكتابة كوفية، وهذه الكتابة متداخلة مع كتابة موجودة على الحافة المستطيلة، وهذه الحنية متصلة بالحافة المستطيلة بواسطة حلقة.

يوجد على جانبي الحنية ركنيتين مزخرفتان بزخارف نباتية لا تكاد ترى جراء توالي طبقات الطلاء فوقها، تليها الحافة المستطيلة المزينة بكتابة بالخط الكوفي وهي كما رأينا تتمة للكتابة حافة الحنية، ويعلو هذا الإطار زخرفة معمارية مؤلفة من 03 أقواس معلاة ومتحدة المركز وترتكز على الإفريز الأفقي من الحافة المستطيلة، وهي تحد حنيتين ونافذة نصف دائرية، بحيث الحنية الخارجية مزينة بأقواس صغيرة ثلاثية الفصوص من الجص، وهي تشبه زخرفة شبكة المعينات بالمآذن الموحدية، أما الحنية الداخلية مزينة بزخارف هندسية مؤلفة من مربعات والمربع ذي الثماني أسنان على أرضية زجاجية، فيما النافذة نصف الدائرية عبارة عن زخارف من الزجاج.

يعلو الأقواس الثلاثة قوس ترتكز على ساريتين كبيرتين قائمتين على جانب المحراب، تزين الباطن منه أشكال هندسية عبارة عين معينات، وهي الأخرى لا تكاد ترى جراء توالي طبقات طلاء الجير وما يلفت الانتباه كتابة مرسومة وسطه متصلة بكتابة أخرى مرسوم على إفريز أفقي.

تتميز المئذنة بمقطع مربع الشكل، ومؤلفة من طابقين الثاني منهما أقل بروزا من الأول، ولها مصطبة تحيط بها شرفة مخرمة، وفانوس صغير أسطواني الشكل ينتهي بقبة شبيهة بالبصلة، والمئذنة من الداخل نجد بها سلما مستديرا في قاعدته درجات متصاعدة حول نواة تتألف من أخشاب اسطوانية قطرها 0.20م مرتبة الواحدة فوق الأخرى (اللوحة رقم02-1)، ويبلغ عدد الدرجات 35 درجة نصل بعدها سطح مئذنة أخرى ذات مقطع مربع، وهي قائمة على نواة أسطوانية تشبه السابقة وبنفس القياسات ولكن مركزها يقع بعد 2.10م شرقي الأولى (اللوحة رقم02-2)، وبعد صعود 16 درجة أخرى نجد بابا يؤدي إلى سطح مستطيل الشكل يقع شمالي المئذنة (اللوحة رقم02-3).

نواصل الصعود بعد ذلك 80 درجة للوصول إلى السطح العلوي، ولكن في هذا المستوى تصبح المئذنة دائرية الشكل قبيل الوصل إلى السطح بـ 0.30م (اللوحة رقم02-4)، وتعد المئذنة بهذا التركيب غريبة الصنع كما أنها بنيت بعد العهد الحمادي، وهذا الطراز من المآذن لا نجد له مثيلا في المغرب والأندلس، والأثر الوحيد الذي يشبهها في المشرق الإسلامي هي مئذنة الحاكم بأمر الله بمصر، وهذا يجرنا إلى طرح سؤال مهم هل تأثر الحماديون بالمآذن الفاطمية؟.

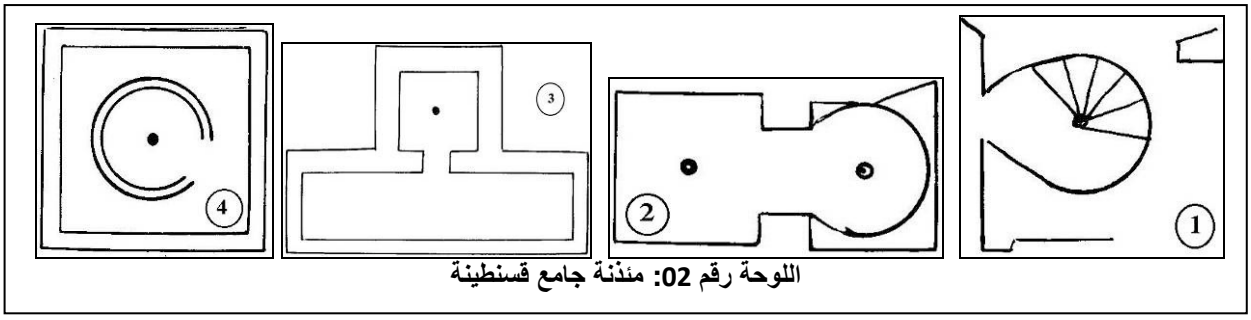

اللوحة رقم 02: مئذنة جامع قسنطينة